وما يرح التقليدُ السخيف لا يعرف له باباً يلج منه الى السخفاء إلا باب التهاون والتسامح ؛ ونحن قومٌ ابتُلينا بتزوير العيوب على أنفسنا وعدِّها فى المحاسن والفضائل ، من قلة ما فينا من الفضائل والمحاسن . ومهذه الطبيعة المعكوسة نحاول أن نقتبس من مزايا الأوربيين فلا نأخذ أكثر ما نأخذ إلا عيوبَهم إذ كانت هى الأسهلَ علينا ، وهى الأشكلُ بطبعنا الضعيف المتسامح المتهاون

ومن هذا تجد مشاكلنا الاجتماعية على أنها أهونُ وأيسرُ من مشاكل الأوربيين ، وعلى أن فى ديننا وآدابنا لكل مشكلة حلها — تجدها هى علينا أصعبَ وأشدَّ لأننا ضعفاء ومتخاذلون ومقلدون ومفتونون ، وكل ذلك من شىء واحد : وهو أن أكثر كبرائنا هم أكبر بلائنا

* * *

قال صاحب السر : ثم ضحك الباشا ضحكته الساخرة وقال : كيف تصنع أمة يكون أكثر العاملين هم أكبرَ العاطلين ، إذ يعملون ولكن بروح غير عاملة . . .

(لحظا) مصطفى صادق الرافعى

طور جديد
فى تاريخ أوربا السياسى
بقلم باحث دبلوماسى كبير

تجوز أوربا اليوم مرحلة فاصلة فى تاريخها القومى والسياسى . وقد ظهرت الأعراض الأولى لهذه المرحلة الجديدة فى التاريخ الأوربى عقب الحرب الكبرى ، إذ قامت عصبة الأمم لتحقق أمنية عالية ، ولتؤيد مبادئ السلام والتفاهم بين الأمم ، ولتحاول القضاء على الحرب كأداة للسياسة القومية ؛ وقد كان قيام العصبة وما تحمل من مبادئ ومثل جديدة فى السياسة الدولية ، وفى علائق الأمم ظاهرة جديدة فى تاريخ أوربا السياسى ؛ فقد كانت أوربا حتى الحرب الكبرى تمثل من الناحية العامة كتلة معنوية موحدة ، وكانت تأخذ زعامة العالم القديم ، وتحول دائماً أن تفرض عليه حضارتها وسلطانها السياسى ؛ وكانت أوربا تحتفظ باستقلالها المعنوى وسيادتها القديمة بين الشرق القديم وأممه من ناحية وبين العالم الجديد (أمريكا) وأممه من ناحية أخرى ؛ ولكن الحرب الكبرى أسفرت عن ظاهرة جديدة هى تراجع أوربا عن دعواها القديمة فى الاستئثار بزعامة العالم القديم ، وإفساحها المجال لزعامة أمة عظيمة ناهضة هى اليابان التى استطاعت فى الأعوام العشرة الأخيرة أن تقوض أسس النفوذ الأوربى فى الشرق الأقصى ، وشهدت أوربا لأول مرة تدخل العالم الجديد فى شؤونها الحيوية ؛ وقامت عصبة الأمم لتجمع أمم الشرق وكثيرا من أمم العالم الجديد مع أوربا فى صعيد واحد ؛ وبذلك نزلت أوربا أمام تطور الظروف والحوادث العالمية عن زعامتها القديمة واستئثارها القديم بالقيادة السياسية والمعنوية فى شؤون العالم

وهذا التطور فى موقف أوربا يرجع الى الثغرة العميقة التى أحدثتها الحرب الكبرى فى القومية الأوربية ؛ فقد خرجت أوربا من الحرب محطمة ناضبة الموارد ، وانقسمت إلى معسكرين كبيرين هما معسكر الغالبين ومعسكر المغلوبين ؛ واستأثر الفريق الظافر مدى حين بالزعامة فى توجيه الشؤون ، فأملى على المغلوب شروطه المرهقة ، وعمل على تمزيق الوحدات السياسية القديمة ، وإحياء قوميات ناشئة ليحقق بقيامها أغراضاً عسكرية وسياسية ؛ وبذلك مزقت أوربا نفسها ، واضطرمت الأحقاد القومية القديمة أضعاف ما كانت قبل الحرب ؛ وكان اضطرامها أشد فى الجبهة المغلوبة أو المغبونة ؛ ولم يلبث أن أسفر هذا الاضطرام عن النتيجة المحتومة ، أعنى الانفجار ؛ فقامت الفاشية فى ايطاليا ساخطة على هذه الزعامة وهذا الاستئثار فى استخلاص المغانم والأسلاب وفى توجيه الشؤون ، وأخذت تعمل على إنشاء قومية إيطالية حديثة ، تضطرم بمختلف الأطماع المشروعة وغير المشروعة ، وتسرف فى الحقد ، وفى الوعيد والتحدى ، وتمعن فى انتهاك النظريات والمبادئ القديمة المتعلقة بالحقوق والحريات الشعبية ، وتسخر من دعوة السلام ومن مبادئ العدالة الدولية . وقامت الاشتراكية الوطنية بعد ذلك فى ألمانيا ، وشعارها الانتصاف لألمانيا مما نزل بها من فروض مرهقة ، وتحريرها من الأغلال التى

طوق بها الغالب عنقها ، والارتفاع بها الى مكانتها القديمة فى معترك الحرب والسياسة ؛ ولكن الاشتراكية الوطنية ، عملت من ناحية أخرى على إذكاء الأحقاد القومية والجنسية ، بصورة لم يسمع بها ، وقد فاقت الفاشية فى عنف أساليبها ، وفى نزعاتها العسكرية والاعتدائية ، وفى سحق الحقوق والحريات الفردية ، وإنكار الحقوق العامة ، وفى تحدى كل مبادئ العدالة الدولية ، وعادت النظرية الألمانية القديمة « الحق هو القوة » فى أخطر صورها ؛ ولم تشهد أوربا منذ حرب الثلاثين ، والحروب الدينية موجة فى الاحقاد والمنافسات القومية والجنسية أشد من تلك التى تثيرها اليوم الفاشية الايطالية والنازية الألمانية

تلك هى الظاهرة الأولى فى انحلال القومية الأوربية . وأما الظاهرة الثانية فهى معركة المبادىء التى تضطرم اليوم فى أوربا بصورة لم تشهدها منذ الثورة الفرنسية ؛ ولقد بدأت هذه المعركة قبل نهاية الحرب الكبرى ، حينما ظفرت البلشفية بتحطيم دولة القياصرة فى روسيا ، وأقامت مكانها جمهورية شيوعية تمثل سيادة الكتلة العاملة ؛ وكانت المعركة يومئذ واضحة محدودة المدى ؛ فقد كانت البلشفية فى ناحية ، وكانت أوربا كلها فى الناحية الأخرى تناضلها وترد غزوها ؛ بيد أن هذا النضال بين البلشفية والرأسمالية يغدو اليوم فى المحل الثانى بالنسبة لمعركة أشد وأبعد مدى تضطرم بها أرجاء القارة الأوربية ، تلك هى معركة الفاشية والديموقراطية ؛ فالفاشية أو بعبارة أخرى نظم الطغيان العنيف التى تحمل لواءها ايطاليا والمانيا ، تحاول أن تغزو الديموقراطية الأوربية وأن تصرعها ؛ والديموقراطية الأوربية تناضل عن كيانها بكل ما وسعت . وما زال حصن الديموقراطية فى غرب أوروبا : فى فرنسا وانكلترا ؛ بيد أنه يمكن أن يقال أيضا إن روسيا البلشفية تنحاز فى هذا الصراع الى جانب الديموقراطية ؛ وليس أدل على خطورة هذا الصراع ، مما نرى فى الحرب الأهلية الاسبانية من انتظام القوى الفاشستية والقوى الديموقراطية وجهاً لوجه ، واعتماد الأولى على معاونة ايطاليا والمانيا ، واعتماد الثانية على معاونة روسيا وفرنسا ، وظهور الحرب الاسبانية كلها بمظهر الصراع بين هاتين الجبهتين الخصيمتين . فهذا الصراع المذهبى الذى يخرج اليوم من طور الجدل والنقاش ، الى طور النضال المادى ، يهز أسس القوميات الأوربية ويهددها بأروع الأخطار التى يمكن تصورها

وهنالك ظاهرة عامة ليست أقل خطورة وأثرا فى تطور تاريخ أوربا السياسى ، تلك هى انهيار المبادىء العامة التى يقوم عليها القانون الدولى ، وانهيار الضمانات القومية والدولية التى كانت تكفل احترامه وتطبيقه . ففى الأعوام الأخيرة رأينا بعض الدول الكبرى ، مثل اليابان وايطاليا وألمانيا ، تعمل على انتهاك المعاهدات والحقوق القومية والدولية بجرأة ترجع بالسياسة الدولية الى فوضى العصور الوسطى ؛ فاليابان تعتدى على منشوريا الصينية وتفتحها بالقوة المسلحة أمام سمع العالم وبصره ، وتتحدى عصبة الأمم ، ثم تغادرها لكى تطلق العنان لمشاريعها الاستعمارية دون أى تدخل أو وازع ، وما زالت تتابع اعتداءها على الأراضى الصينية طبقاً لخطة منظمة ترمى الى بسط حمايتها المسلحة على هذه الامبراطورية الشاسعة ؛ وإيطاليا تحذو حذو اليابان ، فتنظم اعتداءها على الحبشة ، وتجرد أقوى وأحدث وحداتها على الشعب الحبشى الضعيف ، وتمطره وابلاً من القنابل الجوية والغازات الخانقة ، ثم تنتزع منه أرضه قسراً ، وتضمها الى إيطاليا ؛ وذلك على رغم كل العهود والمواثيق الدولية التى قطعتها على نفسها باحترام استقلال الحبشة ووحدتها الجغرافية ، وبرغم ما اتخذته عصبة الأمم فى هذا الظرف من تقرير العقوبات الاقتصادية على إيطاليا ؛ وها هى ذى الفاشية تباهى اليوم بظفرها ، وتسخر جهاراً من عصبة الأمم ومن كل المعاهدات والمواثيق الدولية ، وهى على أهبة لتمزيق أى ميثاق وأية معاهدة لا تتفق مع أطماعها العسكرية والاستعمارية . وأما ألمانيا الهتلرية ، فقد خصت بضرباتها أعظم دستور دولى وضع لأوربا منذ معاهدة فينا ، ونعنى معاهدة الصلح أو معاهدة فرساى ، فنقضت جميع نصوصها العسكرية التى كانت تقيد حريتها فى التسليح ، والتى تتعلق بتحريم منطقة الرين ، ونقضت أخيراً نصوصها الخاصة بنظام الملاحة الدولية فى بعض الأنهار الألمانية ؛ ونقضت وثيقة دولية هامة أخرى هى ميثاق لوكارنو الذى عقد لتدعيم معاهدة فرساى وتأمين السلام فى الحدود الفرنسية الألمانية ؛ وحطمت ألمانيا بذلك آخر القيود العسكرية والسياسية التى فرضت عليها فى

معاهدة الصلح . ومهما قيل فى تبرير هذا النكث من جانب ألمانيا وكونها حملت عليه مضطرة لتقضى بذلك على الأغلال الظالمة التى فرضتها عليها معاهدة الصلح ، والانتصاف لسياستها القومية ، وكرامتها كدولة عظمى ، فانها بلا ريب قد عملت أكثر من أى دولة أخرى لتمزيق العهود والمواثيق الدولية ، ولتقويض أسس الثقة بين الأمم وإضعاف هيبة القانون الدولى ؛ ولا ريب أنها قد أعادت للعالم ذكرى اعتدائها على البلجيك فى سنة ١٩١٤ وذكرى نظريتها الشهيرة فى المعاهدات الدولية بأنها « قصاصات ورق» لا يعتد بها

فهذه الظواهر والظروف الخطيرة تهز اليوم أسس الدستور الدولى الذى عاشت القارة الأوربية فى ظله منذ معاهدة فينا ، — أعنى منذ قرن وربع — وتدفع بها إلى طريق جديد لم تتضح طوالعه بعد . بيد أن هنالك ما يدل على أن هذا المصير الذى تتهيأ أوربا لاستقباله سيكون هائلاً مروعا ؛ فالدول العظمى تستعد كلها لخوض أعظم معارك عرفها التاريخ ؛ والدول الصغرى ترتجف كلها فرقاً من المستقبل ، وتحسب لاعتداء القوة المسلحة أعظم حساب ؛ وهى لا تستطيع أن تعتمد على قوة المواثيق والضمانات الدولية كما كانت فى الماضى بعد الذى رأته من عبث بعض الدول العظمى بكل هذه المواثيق والضمانات ، ولكنها تزمع فى جميع الأحوال ألا تسقط دون دفاع : فالبلجيك وهولندة وتشيكوسلوفاكيا والنمسا وسويسرة وغيرها من الدول الصغيرة تجد فى تسليح نفسها بكل ما وسعت ، وبعضها مثل البلجيك وهولندة ينظر بمنتهى الجزع إلى مصير أملاكه الاستعمارية الواسعة ؛ على أن هذه الدول تندمج غالباً فى إحدى الجبهتين الأوربيتين اللتين تستعدان لخوض المعركة القادمة ، ومصيرها يتوقف على مصاير المعركة ذاتها

وقد فقدت أوربا القديمة زعامتها العالمية ، وفقدت حتى زمام سياستها الخاصة ؛ فاليوم نجد دولة أوربية عظمى هى ألمانيا تحالف دولة آسيوية عظمى هى اليابان ضد روسيا وضد الجبهة الأوربية التى تندمج فيها . وهذا تطور خطير فى سياسة أوربا التقليدية التى حرصت دائماً أن تواجه الشرق متحدة ؛ وهذه ظاهرة تعود بنا إلى القرن السادس عشر والسابع عشر حينما كانت فرنسا تستعين بحالفة الدولة العثمانية على قتال خصومها الأوربيين ولا سيما أسبانيا ؛ وقد استطاعت أوربا أن تقضى على هذه الظاهرة ، وأن تقف طوال القرن التاسع عشر متحدة ضد الدولة العثمانية حتى انتهت بتمزيقها ؛ وفى الحرب الروسية اليابانية كانت أوربا كلها تتوجس شراً من انتصار اليابان ، ولو أن دولا أوربية كانت تتمنى ألا تنتصر روسيا انتصاراً يؤدى إلى تقوية سلطانها فى القارة ؛ ولما انتصرت اليابان ارتاعت أوربا ، وذاعت من ذلك الحين صيحة الخطر الأصفر ، واجتمعت أوربا على مقاومة الاستعمار اليابانى حتى كانت الحرب الكبرى فانضمت اليابان إلى الحلفاء ضد ألمانيا ، واستولت على أسلابها الاستعمارية فى الصين . أما اليوم فان ألمانيا تحالف اليابان ضد أوربا ، وتحدث بذلك ثغرة عميقة فى إجماع أوربا القديم ، وتجمع الشهوات العسكرية والاستعمارية بين الجنس الأصفر الذى اعتبر فيما مضى خطراً على أوربا ، وبين الجنس « الآرى » الذى تزعم ألمانيا الهتلرية أنه أفضل أجناس العالم

وأخيراً نجد العالم الجديد (أمريكا) يتأهب للأخذ بنصيبه فى توجيه سياسة القارة القديمة ؛ وقد دخلت أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء ، وعاونت على ظفرهم فى المعركة الحاسمة ، واشتركت فى شؤون أوربا مدى حين ، ولكنها انسحبت منها حينما تفاقمت الفوضى الدولية فى أوربا ، وعادت إلى سياستها التقليدية من اعتزال الشؤون الأوربية ، بيد أنه يلوح لنا أن التحالف اليابانى الألمانى قد يحملها على العود الى الاشتراك فى السياسة الأوربية مرة أخرى ، والى محالفة الدول الغربية على العمل لمصالحها المشتركة فى الشرق الأقصى ، وهذا عامل خطير أيضاً فى إضعاف الطابع الأوربى للسياسة الدولية العامة

والخلاصة أن أوربا فقدت زعامتها السياسية والاجتماعية القديمة ، وأخذت تندمج شيئاً فشيئاً فى الوحدة العالمية الكبرى ؛ وقد فقدت فكرة الحضارة الأوربية ، وخصومة الشرق والغرب ، والتضامن الأوربى فى الشؤون الاستعمارية كثيراً من معانيها وأوضاعها القديمة التى كانت تسبغ على أوربا مكانة الزعامة والوحى والارشاد

(***)